

علاقة المذهب الشيعي الإسماعيلي الجديد بالمذاهب الإسلامية الأخرى في العصر الفاطمي الدور المغربي 296 هـ _ 362 هـ

ك هـ د / نشيدة رافعي

قسم التاريخ جامعة الجزائر 2

لقد كان للحركات المذهبية في بلاد المغرب أثر كبير في تاريخ هذه المنطقة منذ القرن الثاني الهجري، فقد استطاع دعاة الشيعة والخوارج إيصال آرائهم السياسية إلى مناطق أقصى المغرب، مستغلين البعد الجغرافي عن حاضرة الدولة العباسية ببغداد، الأمر الذي ساهم في نجاح دعوتهم ومكنهم من إقامة كيانات سياسية خاصة بهم، ولعل أهمها الدولة الفاطمية التي تعتبر أكبر دولة شيعية إسماعيلية في التاريخ الإسلامي، كان منطلقها مضارب قبائل كتامة بالمغرب الأوسط لتتمكن بعد ذلك من السيطرة على أقاليم واسعة شملت إلى جانب بلاد المغرب مصر وبلاد الشام وأرض الحرمين الشريفين، وكانت قاب قوسين أو أدنى من القضاء على الخلافة العباسية .

و من المعلوم أنّ الفاطميين الشيعة قد واجهوا في المدة القصيرة التي قضوها في بلاد المغرب اضطرابات وفتنا وثورات عديدة، اتخذت طابعا مذهبيا في أغلبها، ورأينا في هذا المقال أن نتكلم بإيجاز عن علاقة المذهب الإسماعيلي بالمذاهب الأخرى وأهمها المذهب السني ممثلا بالمذهب المالكي والمذهب الخارجي ممثلا في الخوارج النكارية، فتناولت أولا علاقة الإسماعيلية بأهل السنة، ثم أردفت ذلك بالكلام عن علاقة الإسماعيلية بالخوارج .

1 _ علاقة المذهب الشيعي الإسماعيلي بالمذهب السني المالكي: لقد كان للمذهب الحنفي حضور في بلاد المغرب خاصة في المرحلة التي سبقت قيام الدولة الفاطمية، وكانت علاقة المذهب الشيعي بالأحناف قد تطورت وتلونت باختلاف الظروف والأحداث من علاقة مواجهة ومعارضة إلى علاقة انسجام بل تحالف في الغالب.

أما علاقة المذهب الشيعي بالمذهب السني المالكي فكانت متوترة طيلة كامل الحضور الفاطمي بإفريقية، بل انتقلت إلى مواجهة عنيفة دموية أحيانا ⁽¹⁾، وقد مرت هذه المواجهة بطورين متميزين :

— الطور الأول : تميّز هذا الطور بأنّه طور علمي عقائدي تواجه فيه فقهاء المالكية ودعاة الشيعة، ولم تتعد المواجهة حدود التباري والمساجلة في المجالس الخاصة والعامة، دارت فيها هذه المناظرات بهدوء أحيانا وبحدة أحيانا أخرى، لكنّها ارتكزت في الغالب على ما توفر لدى الفريقين من أبواب الإقناع وفنون الفصاحة وأساليب الحجاج، وانتقلت مضامين هذه المناظرات ممّا كان يثار في مجالس الجدل من مواضيع كلامية كالقضاء والقدر والأسماء والصفات وخلق القرآن إلى مضامين ألصق باهتمامات الشيعة وهموم الدعاة، ومنها قضايا الإمامة والخلافة وصفات الإمام وعصمته وعلمه بالغيب وفضائل أهل البيت إلى غير ذلك من المواضيع التي تخدم سياسة الفاطميين وفكرهم السياسي .

و قد كان الصراع سجالا بين الفريقين، فحرّصت المصادر الشيعية على إبراز تغلب دعاة الأئمة كأبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس أو الداعي جعفر بن منصور اليماني وإبراز انتصاراتهم في هذه المحافل، في المقابل سعت المصادر السنية إلى تصوير براعة علماء أهل السنة وإفحامهم خصومهم وجهادهم في سبيل الحق والدين كما حصل مع ابن الحداد وابن التبان .

— الطور الثاني: تذكر المصادر أنّ المواجهة أصبحت حادة عنيفة تجاوزت حدود السجال والتنافس إلى العنف، وهو طور نتج عن إصرار الشيعة على فرض مذهبهم بكل الأساليب بعد فشل كل وسائل الإقناع والإغراء حرصا منهم على كسب القوة العددية والانتشار المكاني، كما نتج عن ذلك إصرار أهل السنة رفض هذا المذهب ومقاومته بكل الوسائل .

و تضيف المصادر التاريخية والمراجع المختصة أنّ هذه المواجهة استمرت في طورها الأول والثاني طيلة الحضور الفاطمي في إفريقية، وكانت على رأي البعض من أسباب رغبة الفاطميين في الانتقال إلى مصر بعد فشل سياستهم الداخلية ⁽²⁾، والطريف أنّ هذين الطورين قد أفرزا رغم حدة المواجهة وما نتج عنها من عدا وضرر أصاب الفريقين نشاطا عقائديا وأدبيا خاصا .

أمّا فيما يتعلق بالنشاط العقائدي فيتمثل فيما تمخّص عن تلك المساجلات والمباريات من تطور لفنون الجدل وتأسيس لعلم الكلام ظهر فيما وصل إلينا من نصوص أو مجالس أو مؤلفات نذكر منها ما يلي :

- _____ الخليفة المنصور الفاطمي: تنبيث الإمامة، كتاب الوصية (3) .
- _____ الخليفة المعز لدين الله الفاطمي: تأويل الشريعة، كتاب الروضة (4) .
- _____ القاضي النعمان: المجالس والمسائرات، الهمة في اتباع الأئمة، دعائم الإسلام، تأويل الدعائم، الإقتصار (5) .
- _____ جعفر بن منصور اليمني: تأويل الزكاة، سرائر النطقاء (6) .
- _____ ابن الحداد: إيضاح المشكل، كتاب الإستيعاب، كتاب عصمة البنين، كتاب المقالات (7) .
- _____ أبو العرب: الوضوء والطهارة، الجنائز، ذكر الموت وعذاب القبر (8) .
- _____ البرادعي: إختصار الواضحة، الشرح والتمامات، تمهيد مسائل المدونة (9) .
- _____ ابن أبي زيد القيرواني : مختصر المدونة، الرسالة، الإقتداء بأهل السنة (10) .

- _____ الممسي : تحريم المسكر، إختصار كتاب ابن المواز (11) .
- و من الكتب التي صنف في الجدل والردّ على المخالفين نذكر منها:
- _____ ابن أبي زيد القيرواني : الذب عن مذهب مالك (12) .
- _____ القلانسي : كتاب الإمامة والردّ على الرافضة (13) .

2 — علاقة المذهب الإسماعيلي بالخوارج: تتفق المصادر التاريخية على

أنّ المواجهة بين الشيعة والخوارج أخذت طابعا ثوريا، وتمثلت في ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد المعروف بصاحب الحمار (14)

و التي امتدت إلى ثلاث سنوات من محرّم 333هـ إلى محرّم 336 هـ، وانفجرت بعالمي العصبية القبلية لزناتة ضد عصبية كتامة الموالية للشيعة، وكانت هذه الثورة الخارجية أول وأصعب إمتحان حقيقي رهيب للوجود الفاطمي في بلاد المغرب بعد أن سقطت حواضر إفريقية عدا المهديّة وسوسة اللتين ذاقنا مرارة الحصار وويلات الحرب والمجاعة أواخر عصر القائم وبداية عصر المنصور، أمّا الأول فمات تحت الحصار، وأمّا الثاني فقاتل الخوارج بنفسه، ونظرا لمجهوداتهما كان المعز

لدين الله يترحم على روحهما، وتأسف لما أصابهما أثناء هذه المحنة الكبرى، وقد كلفت هذه الحركة الدولة الفاطمية نفقات باهضة وخسائر لا تدخل تحت حصر⁽¹⁵⁾، كما أضرت بالحياة الإقتصادية والحضرية في إفريقية وإقليم الزاب على نحو لم تفقها أية حركة ثورية سابقة أو لاحقة، والأمر نفسه لحق بعصبية الدولة الفاطمية كتامة حيث أصيبت في خيرة رجالها وأبنائها .

و النقطة المهمة التي ينبغي التوقف عندها في هذه الثورة هي مشاركة المالكية فيها، فقد رأى فقهاء القيروان أنّ الخوارج من أهل القبلة بينما بنو عبيد (الفاطميون) مجوس كفار يجب قتالهم⁽¹⁶⁾، وقد توفي كثير من علماء بلاد المغرب خلال هذه الثورة، ولما بان لهم خداع أبي يزيد لهم انكشفوا عنه، فكان هذا إحدى الأسباب التي أدت بثورة صاحب الحمار إلى الهزيمة .

ومن النتائج المهمة بالنسبة للفاطميين بعد نجاحهم في القضاء على هذا الخطر الكبير أنهم تمكنوا من كسب ولاء قبيلة صنهاجة البربرية، فقد انضم إليهم زيري بن مناد ورجاله أثناء حصار الخوارج المهدية، وأبان خلالها الصنهاجيون عن مقدرات هائلة في القتال مما سيكون له بالغ الأثر فيما سيأتي من أحداث بعد رحيل الفاطميين إلى مصر . ولم ينتظر المنصور ثالث الخلفاء الفاطميين طويلا بعد القضاء على الخوارج، فقد شرع في الإنتقام من جميع من أيدهم وانضم إليهم، فنال أهل السنة وفقهاء المالكية منه شرّا كثير، ولم يزلوا معه في الإمتحان إلى أن توفي سنة 341 هـ / 952 م⁽¹⁷⁾ .

و أخيرا يمكن القول أنّ الإسماعيلية الشيعية تمكنوا من إقامة دولة قوية رغم ما واجهته من أخطار كبيرة خاصة الداخلية منها، ورغم ما بذلوا من جهد في محاولة نشر مذهبهم في بلاد المغرب إلّا أنهم لم ينجحوا في مساعهم هذا، وظلّ مذهب أهل السنة المالكي هو المهيمن على أهل بلاد المغرب من أقصاها إلى أقصاها إلى يوم الناس هذا، لذلك نجد الفاطميين يرحلون إلى مصر حيث بنوا القاهرة التي أضحت حاضرتهم إلى حين نهاية دولتهم وسقوطها على يد صلاح الدين الأيوبي .

1 ————— يقال أنّه بلغ عدد الذين ماتوا بدار البحر بالمهدية أربعة آلاف بين عابد وعالم انظر :

محمد النيفر، الحياة الأدبية بإفريقية في العصر الفاطمي بالمغرب، تونس، 1992، ص 405 وموسى لقبال،

دور كتامة في الخلافة الفاطمية، الجزائر، 1979، ص 420 .

- 2 _____ محمد الصالح مرمول، السياسة الداخلية للفاطميين في المغرب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص153
- 3 _____ الجوزري منصور العيزي، سيرة الأستاذ جوذر، نشر: محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة، مصر، ص 172 .
- 4 _____ القاضي النعمان، المجالس والمسائرات، تحقيق : ح فقي وإ شيوح وم العلوي، تونس، 1978، ص ص 24،27 .
- 5 _____ مقدمة المجالس والمسائرات، المحققون، ص ص 14، 15 .
- 6 _____ حسن ابراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية بالمغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب، ص 489 .
- 7 _____ الدباغ، معالم الإيمان، المطبعة العربية التونسية، 1320 هـ، ج2، ص 202، 215 .
- 8 _____ المالكي، رياض النفوس، تحقيق : بشير البكوش، بيروت، 1985، ج2، ص 306 .
- 9 _____ الدباغ، مصدر سابق، ج3، ص 184 .
- 10 _____ القاضي عياض، الم_____دارك، تحقيق : أحمد بكير محمود، بيروت، 1967، ج3، ص 310 .
- 11 _____ المالكي، مصدر سابق، ج3، ص ص 292، 305 .
- 12 _____ الدباغ، مصدر سابق، ج3، ص ص 135، 151 .
- 13 _____ القاضي عياض، مصدر سابق، ج4، ص 524 .
- 14 _____ عن تفاصيل هذه الثورة انظر رسالتنا :
Rafai (Nachida), Les Fatimides d'après Ibn Hammad as sanhagi , Etude de texte et traduction commentée d' Akhbar muluk banu ubaid, These de doctorat de 3^{eme} cycle , université sorbonne, Fasc III , Paris, 1986
- 15 _____ ابن حمّاد الصنهاجي، أخبار ملوك بني عبيد، نسخة المكتبة الوطنية بالجزائر رقم 1588، ورقة 22، 23 .
- 16 _____ راجع : المالكي، مصدر سابق، ج2، ص292 .
- 17 _____ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب، تحقيق : كولان وبروفنسال، بيروت، ج1، ص313 .